الثقافة الإسلامية

(٣٢)

البصائر الأربعة في سورة العصر

الإصدار الثاني

مع إضافات وتصحيح وتنقيح

محمّد مهدي الآصفي

مختارات من محاضرات ومقالات

ومؤلفات الشيخ محمد مهدي الآصفي

- ٣٢ -

* * *

اسم الكتاب: ....البصائر الأربعة في سورة العصر

المؤلف: .... محمّد مهدي الآصفي

الطبعة الخامسة: .... ١٤٣١ هـ ـ ٢٠١٠م

الكمية .... ٥٠٠٠ نسخة

المطبعة: .... مطبعة مجمع أهل البيت ^ النجف الأشرف

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَالْعَصْرِ* إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْـرٍ* إِلَّـا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ }.

سورة العصر من غرر قصار السور في القرآن الكريم، وكل آيات كتاب الله غرر وبصائر.

وقد تضمنت السورة على اختصارها ثلاثة محاور.

فهي تتألف من قسم وجواب القسم والاستثناء من جواب القسم.

وهذه محاور ثلاثة.

كما لو قلت: والله إني أحج هذه السنة إلا أن يعرض لي مانع.

فإن هذه الجملة تتألف من قسم هو (والله)، وجواب للقسم هو (أحج هذه السنة)، واستثناء من الجواب وهو (إلا أن يعرض لي مانع).

وبنفس النظام تنقسم سورة العصر إلى ثلاث محاور: قسم، وجواب للقسم، واستثناء من الجواب.

أمّا القسم: فهو (والعصر).. و(الواو) في هذه الكلمة للقسم و(العصر) المقسم به، وهو بمعنى الزمان في أقرب التفاسير إلى سياق السورة المباركة.

وجواب القسم: (إنّ الإنسان لفي خسر).. وهذه الجملة

هــي روح هــذه الســورة وجوهرهــا، التــي انعقــدت الســورة المباركة من اجل تقريرها، وهي من غرر بصائر كتاب الله.

والاستثناء من جـواب القسـم هـو قولـه تعـالى: (إلا الـذين آمنوا وعملوا الصالحات، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر).

وهذه الجملـة اسـتثناء مـن الحقيقـة الكبـرى التـي قررتهـا جملة جواب القسم في هذه السورة.

إنّ الناس كل الناس، في خُسْر متصل فـي هـذه الـدنيا، إلا الذين آمنوا، وعملوا الصـالحات، وتواصـوا بـالحق، وتواصـوا بالصبر. فان هؤلاء قد مكّنهم الله، ان يقلبوا (الخسر) إلى ربح وفلاح.

وجملة الاستثناء تتألف من شطرين، وكل منهما بصيرة:

الشطر الأول: (إلا الذين آمنوا وعملـوا الصـالحات)، وهـو بمعنى شرط الايمان والعمل الصالح في الخلاص والنجاة مـن الخسر.

والشطر الثاني: (وتواصوا بـالحق، وتواصـوا بالصـبر)، وهـو بمعنى ان الإيمان والعمل الصـالح، إن لـم يكونـا علـى منهـاج (الحق) و(الصراط المستقيم) الذي قرره الله تعـالى لعبـاده فـلا

يخرجـان صـاحبهما مـن (الخسـر) ولا يدخلانـه فـي النفـع والفلاح..

ولأن أمر (الحق) صعب وعسير، فلابـد فيـه مـن (التواصـي بالحق والتواصي بالصبر عليه).

وهاتان بصيرتان في جملة الاستثناء.

وإذا أضـفنا اليهمـا بصـيرتين اخـريين، وهمـا (القسـم) و(جـواب القسـم)، كانـت السـورة المباركـة علـى وجازتهـا واختصارها تتألف من أربعة بصائر:

القسم، وجواب القسم، والاستثناء الاول لجـواب القسـم، والاستثناء الثاني لجواب القسم..وهـذه اربـع بصـائر تتضـمنها سورة العصر المباركة.

وسوف اتحدث إن شاء الله عن هذه البصائر الاربعة، علـى سبيل الاختصار، بصيرة بصيرة ، رزقنا الله وعـي بصـائر كتابـه، إن شاء الله.

البصيرة والبصائر

في البدء نتحدث عن البصيرة والبصائر.

القرآن بصائر من عند الله.

(قَدْ جَاءكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ) الانعام/١٠٤ .

فإذا أردنا أن نتحدث عن البصائر الاربعة في سورة العصر فلابد أن نتساءل أولاً عن (البصيرة) و(البصائر) ما هي؟

البصائر في القرآن هي الافكار والمفاهيم والمبادئ التي تمكننا من فهم الحقائق في الكون والتاريخ والمجتمع والحياة.

ففي الكون، والتاريخ، والمجتمع، وحياة الآخرة حقائق كبيرة وهامة وواضحة، ولكنها رغم وضوحها تخفى على الكثيرين. كما أن هناك حقائق رقيقة لا يدركها الا من آتاه الله نوراً من بصائر كتابه، ولا يمكن الوصول اليها الا من طريق الوحي.

فمن الحقائق الواضحة التي تغيب عن الكثيرين رغم

وضوحها هو قوله تعالى في سورة العصر (إنّ الإنسان لفي خسر) فهي تغيب عن اكثر الناس رغم أنّ الناس جميعاً يعلمون أنّ الإنسان في حالة تناقص دائم، ومع كل نقص خسارة الا أن يستثمر عمره فيما أحب الله، ومع ذلك يخفى على الكثيرين.

وهناك حقائق وقوانين في الكون والمجتمع والتاريخ، وفي الدنيا والآخرة لا يمكن الوصول اليها بالوسائل والمناهج العلمية المعروفة في الفيزياء والكيمياء والرياضيات وعلم النبات وعلم الأحياء.. والمصدر الوحيد الذي نستقي منه هذه المعارف هو (الوحي) ولو حجبنا عن الوحي لم يبق لنا سبيل إلى الوصول إلى هذه الحقائق.

من ذلك قوله تعالى: (لئن شكرتم لأزيدنكم) إبراهيم/ ٧، ومن ذلك قوله تعالى (ادعوني استجب لكم) غافر/ ٦٠، فان هذه وتلك حقائق قائمة في العلاقة بين الإنسان وبين الله تعالى.

ولكن لا سبيل إلى إثباتها بصورة علمية منهجية، بالوسائل العلمية المعروفة في الرياضيات والعلوم التجريبية.

ومن ذلك قوله تعالى: (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب) الطلاق/٣، ومن ذلك قوله تعالى: (فاذكروني أذكركم) البقرة/ ١٥٢، فقد يدرك الإنسان بعض هذه الحقائق بالتجربة، ولكنها لا تخضع للمناهج العلمية المعروفة في الرياضيات والعلوم التجريبية، ولا يمكن إثباتها بها. . والأداة المفردة للوصول إلى هذه الحقائق هو الوحي.

وهذه الآيات وغيرها من بصائر القرآن من رقائق سنن الله تعالى في الغيب والشهود لا يعرفها الكثيرون ممن أعرضوا عن بصائر القرآن.

وهذه البصائر كما ذكرنا تُمكّن الإنسان من فهم حقائق الكون والتاريخ والمجتمع والحياة في الشهود والغيب.

ومن ذلك قوله تعالى: (**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**) الاعراف/ ٩٦ .

فهي تشير الى حقيقة كبرى في التاريخ والمجتمع وفي حياة الافراد في علاقة التقوى بنعم الله فإن التقوى تستنزل النعم، كما أنّ العصيان تصدّ النعم.

وبهذه البصيرة نبصر العلاقة بين التقوى ورحمة الله تعالى على الناس.

ومن أمثلة هذه البصائر قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ) الاعراف/ ٢٠١ .

وفي هذه البصيرة نتعلم كيف نطرد الشيطان عن أنفسنا بالتقوى. فمن يتقي الله تعالى لا يقتحم الشيطان قلبه وعقله ونفسه، وإنما يطوف حوله ليجد ثغرة يتسلّل منها إلى نفسه، فيتذكّر الإنسان فجأة وفي وقت مبكر حضور الشيطان فيحذره، ويتعوّذ منه، وكأنما التقوى تدفعه إلى الحذر والانتباه، فيتذكر ويُبْصر، فيتوارى عنه الشيطان.

ومن ذلك قوله تعالى: (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره).

وهذه البصيرة القرآنية قانون بقاء العمل وتحوّله من الدنيا إلى الآخرة، من خير او شر، وصواب أو خطأ.

فما من عمل يُقْدِم عليه الإنسان إلاّ ويلقاه عند الله، يوم يلقى الله، ولا يتسرب الفناء والزوال الى أعمال الإنسان. .

وهي حقيقة كبرى من حقائق الشهود والغيب بين الدنيا والآخرة وإذا عرف الإنسان هذه الحقيقة يتحول منهج حياته وسلوكه وتفكيره إلى حالة من الوعي والحذر والحرص على لحظات العمر التي تتسرب إليها الفناء..

إن بصائر القرآن على أنحاء كثيرة منها ما تبين العلاقة بين الدنيا والدنيا، مثل قوله تعالى: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)، فإن الناس لا ينالون تغييراً في دنياهم في حياتهم الاقتصادية والسياسية والعسكرية والعمرانية، من جانب الله، الا عندما يبدأون التغيير بأنفسهم فيرزقهم الله التقدم والانتعاش في حياتهم الاقتصادية والازدهار في اسواقهم، والعمران في بلادهم، والتقدم في قدراتهم العلمية. . ومن ذلك قوله تعالى: (ومن يتوكل على الله فهو حسبه).

وهذه المعادلة من المعادلات القائمة بين الدنيا والدنيا، ومنها العلاقة بين الآخرة والآخرة، نحو قوله تعالى:

(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُونَ)، المؤمنون/ ١٠١.

(يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفّاً لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ

أَذِنَ لَهُ الرحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً)، النبأ/ ٧٨ .

ومنها ما تبين العلاقة بين الدنيا والآخرة، مثل قوله تعالى: **(وَمَن كَانَ فِي هَـذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبيلاً)** الاسراء/ ٧٢، وقوله تعالى: **(مَن جَاء بِالْحَسَـنَةِ فَلَـهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا)** الانعام/ ١٦.

ومنها ما يبين العلاقة بين الشهود والشهود نحو قوله تعالى: **(إن الإنسان لفي خسر)**. أو بين الغيب والغيب، نحو قوله تعالى: **(أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)** الرعد/ ٢٨.

فان طرفي المعادلة كليهما من الغيب.

أو تعكس العلاقة بين الغيب والشهود نحو قوله تعالى: **(وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً* وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ)** الطلاق/٢ - ٣، فإن التقوى من الغيب والرزق وانفراج الازمات من الشهود.

وقد تعكس العلاقة بين الشهود والغيب (بعكس الحالة السابقة) نحو قوله تعالى: **(فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره)** الزلزلة/ ٧ - ٨، فان الخير

والشر في الدنيا غالباً من الشهود وحضوره عند صاحبه في الآخرة من الغيب.

إذن بصائر القرآن متعددة مختلفة، منها ما يتعلق بعلاقة الدنيا بالدنيا.

ومنها ما يتعلق بعلاقة الآخرة بالآخرة.

ومنها ما يتعلق بعلاقة الدنيا بالآخرة.

ومنها ما يتعلق بالعلاقة بين الشهود والشهود.

ومنها ما يتعلق بالعلاقة بين الغيب والغيب.

ومنها ما يتعلق بالعلاقة بين الغيب والشهود.

ومنها ما يتعلق بالعلاقة بين الشهود والغيب.

وهي تجهز الإنسان برؤية صافية نقية يرى الاشياء والامور بها بغير ما يراه الناس، ويفرق بها بين الحق والباطل، والصدق والكذب، والأمانة والخيانة، والنصح والغش.

وهذه رؤية وتفريق لا ينالها الا اصحاب التقوى والذكر من عباد الله الصالحين.

يقول تعالى: **(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً)** الانفال/ ٢٩ .

وهذه رؤية متميزة لا يلتبس على صاحبها الحق بالباطل والصدق بالكذب.

وقد توجه فكره وعقله، وهو أمر آخر غير الرؤية الصافية التي تحدثنا عنها، ونوضح ذلك بآيتي الحمد والعبادة والاستعانة في سورة الحمد:

إذا عرف الإنسان أنّ كل رحمة ونعمة وحول وقوة من عند الله، وأنّ الله هو رب العالمين، وليس من حول ولا قوة ولا نعمة ولا فضل الا من عند الله، عندئذ لا يحمد الإنسان أحداً غير الله، الا في امتداد الحمد لله، ولا يستعين بأحد غير الله الا في امتداد الاستعانة بالله، ولا يعبد أحداً غير الله.

وليس معنى ذلك أن لا يحمد الإنسان أحداً على جميل، ولا أن لا يستعين بأحد او بشيء غير الله، فإن ذلك على خلاف سنن الله تعالى، وإنّما معنى ذلك أن يعرف الإنسان أنّ الله تعالى هو أهل لكل حمد، وإنما نحمد الناس ونحمد الأشياء بما وهبهم الله من الجميل، فالله تعالى هو الذي يستحق كل الحمد وأي شيء آخر غير الله فهو إنما يستحق الحمد في امتداد الحمد لله وليس مع الله، وهو معنى توحيد

الحمد لله (الحمد لله).

وكذلك الاستعانة، فإن كل حول وقوة بالله ، وبالضرورة كل استعانة يكون بالله، وما من شيء او شخص يمكن ان نستعين به الا ان تكون استعانتنا به في امتداد الاستعانة بالله.

وهذا المعنى معنى عقلي ذهني محض، ولا دخل له في سلوك الإنسان. فالفلاح يستعين بالبذور والسقي والتربة والحرث. . من دون أن يكون لهذا المعنى تأثير في طريقة عمله، ولكن الفلاح الذي يحمل بصائر التوحيد، يعلم أن كل ما يستعين به وكلّ من يستعين به يأتي في امتداد الاستعانة بالله، وهو في الحقيقة في كل تعامله المادي مع الأشياء والأشخاص، واستعانته بها وبهم لا يستعين بغير الله، وكلما استعان بشيء فقد استعان بالله، وهو معنى (إياك نستعين)، ومعنى حصر الاستعانة بالله، وهو المقصود بتوحيد الاستعانة.

وكما توجه البصائر عقل الإنسان وفكره كذلك توجّه سلوك الإنسان ومواقفه وحركته وعلاقاته.

فإن الإنسان اذا عرف أن الابتلاء سُنّة إلهية مطلقة غير مشروطة، تصيب الناس جميعاً، ولا يسلم من الابتلاء أحد،

فإذا صبر الإنسان واستقام وتحمّل الابتلاء بسعة صدر، فإنه يضع نفسه في موضع صلوات الله ورحمته.. وإذا جزع في الابتلاء فإنه يخسر هذا الموقع الشريف الرفيع، دون أن يسلم من الابتلاء.. عندئذ يصبر الإنسان ويستقيم ويقاوم، ولا ينفذ صبره.

تأملوا في هذه الآية الكريمة من سورة البقرة/ ١٥٥:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ، أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ).

إن هذه البصيرة من بصائر كتاب الله يوجّه بصورة مباشرة سلوك الإنسان وموقفه في الأزمات والشدائد ويمنحه القوة والمقاومة.

وكذلك قوله تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)** البقرة/ ١٥٣ .

فـإن الإنســان اذا وعــى معيــة الله للصــابرين (إن الله مــع الصابرين) يزداد قوة وصموداً ومقاومة وثباتاً.

إذن بصائر القرآن تجهّز الإنسان برؤيـة ربانيـة صـافية نقيـة أولاً. وتوجّه عقله وفكره ثانياً، وتوجه سلوكه ومنطقه ومواقفه وعلاقاته ثالثاً.

والآن ننتقل الى البصائر الأربعة في سورة (العصر).

البصائر الأربعة في سورة العصر:

في سـورة العصـر تجتمـع أربـع بصـائر فـي ثـلاث آيـات، وتنتظم هذه البصائر الأربعة في الاجزاء الثلاثة للسورة.

والاجزاء الثلاثة في هـذه السـورة هـي (القسـم) و(جـواب القسم)، و(الاستثناء من جواب القسم) بالشرح التالي:

١- القســم وهــو (والعصــر)، ٢- و(جــواب القســم) وهــو القضية التي من أجلهـا يجـري القسـم وهـو (إن الإنسـان لفـي خسر)، ٣- والاستثناء من جواب القسم، وهو (إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصـوا بـالحق وتواصـوا بالصـبر)، وهـو استثناء من القضية المتقدمة (إن الإنسان لفي خسر).

هـذه هـي الأجـزاء والفصـول الثلاثـة لهـذه السـورة التـي تتضمن بصائر أربعة:

البصيرة الاولـى فـي القسـم، والبصـيرة الثانيـة فـي جـواب القسـم، والبصـيرة الثالثـة والرابعـة فـي الاسـتثناء مـن جـواب القسم.

وكل بصيرة من هـذه البصـائر تحتـاج إلـى توقـف وتأمـل كثير ونحن إن لم نتمكن فـي هـذه المقالـة مـن هـذا التوقـف الطويل فسوف نحاول إن شاء الله ان نتوقـف عنـد كـل واحـد مـن هـذه البصـائر الأربعـة وقفـات قصـيرة، عمـلاً بالأصـل العقلائي المعروف: إن الميسور لا يسقط بالمعسور.

البصيرة الاولى

القَسَمْ (والعصر)

كلام الله حق، لا ريب فيه، ولا حاجة فيه للقسم.

ولكن القسم أسلوب بياني معروف لتأكيد القضايا وتثبيتها في نفوس المخاطبين. وجرياً على هذا الأسلوب البياني يجري القسم في القرآن في مواقع عديدة، مثل قوله تعالى: **(ن والقلم)، (ص والقرآن)، (والليل اذا يغشى)، (والفجر وليالٍ عشر)، (والنهار اذا تجلى)، (والشمس وضحاها)، (يس والقرآن الحكيم)، (والضحى والليل اذا سجى)، (والتين والزيتون).**

السنخية بين القسم والمقسم له:

ومن رقائق القسم في القرآن: السنخية بين القسم وجواب القسم.. وهذه السنخية من رقائق نكات القرآن لا يسعنا أن نفصّل فيها الحديث في هذا المقال. ولكن بقدر ما يتعلق بسورة العصر، أقول: إنّ العلاقة بين القسم والمقسم له:

(جواب القسم) واضحة، فإن العصر هو الزمان، والمقصود من الخسر في جواب القسم هو الحالة التدريجية لخسارة الإنسان لعمره، ساعة بعد ساعة، ودقيقة بعد دقيقة، وهي حالة الاستهلاك والتناقص التدريجي لعمر الإنسان، وهو زمانه الذي قدره الله له في هذه الدنيا. وبناءً عليه، فإن القسم وجواب القسم من سنخ واحد، كما هو ظاهر.

دلالتان في القسم

والقسم يحمل معنى قضائياً، ومعنى بيانياً والمقصود بالقسم في هذه السورة وفي سائر السور المعنى الثاني، بالتأكيد.

وللقسم من الناحية البيانية دلالتان:

دلالة على الاهتمام بالمقسم به والتذكير بأهميته وخطورته.

والدلالة الاخرى: الدلالة على اهتمام المتكلم بجواب القسم.

والقسم في هذه السورة يتضمن هذين المعنيين بالضرورة،

وهما الاهتمام بالعصر، وهو بمعنى الزمان، وقيمته الكبرى في حياة الانسان وفلاحه، والاهتمام الآخر: الاهتمام بجواب القسم، وهو قوله تعالى: (إن الانسان لفي خسر). . وقد قلت قبل قليل: إنّ سورة العصر منعقدة لبيان هذه الحقيقة، وهو روح هذه السورة وأن كل الادوات البيانية في هذه السورة من القسم، والتصدير بكلمة (إنّ) المفيدة للتأكيد والتحقيق (إن الإنسان لفي خسر) موجهة للدلالة على أهمية المقسم له.

والقسم بالعصر في هذه السورة يدل على أهمية العصر والزمان عند الله، وتعظيم القرآن له. وهذا التعظيم لأمر الزمان والاهتمام الكثير به هو البصيرة الاولى في هذه السورة.

فإن الزمان تاريخ تكامل الإنسان. ولم يتكامل الإنسان، ولم تتكامل حضارة الإنسان، ولم تتكامل معرفة الإنسان وعلومه إلاّ على عمود الزمان.

وإذا ألغينا الزمان من الحساب، فقد ألغينا التاريخ، لأنّ التاريخ هو الحركة التدريجية للزمان. وإذا ألغينا التاريخ توقف تكامل الإنسان وتوقفنا عند الإنسان في عصره الحجري الأول، يوم كان الإنسان في بدايات المعرفة، لا

يعرف بعد صنعة لبوس، ولا يعرف كيف يستخرج النار من الطبيعة. ويحدثنا القرآن: إن قابيل لما قتل أخاه هابيل لم يعرف كيف يواري جثمان أخيه، حتى بعث الله إليه غراباً علّمه كيف يواريه في التراب.

إنّ تكامل حركة الإنسان وحضارته ومعرفته وعلومه هو التاريخ، والتاريخ هو حركة الزمان.

ولا يختلف دور الزمان في تكامل الفرد عن دور الزمان في تكامل الشعوب والأمم. فإن الإنسان يولد من أمّه لا يعرف شيئاً كما يقول القرآن (**وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً**) النحل/ ٧٨ .

وعلى عمود الزمان يتكامل الإنسان، فيتعلّم ويَعْلم ويُعلّم، ويُؤسّس للعلم، ويطوّر العلم، وإذا جرّدنا الإنسان من عامل الزمان بقي الإنسان كما يقول الله تعالى (لا تعلمون شيئاً).

والعلم بعض ما يحقّقه الإنسان على عمود الزمان. فإن الإنسان يكسب مواقع القرب من الله على عمود الزمان ويرقى الإنسان في عروجه إلى الله... حتى يكون في أقرب ما يتصوره العقل من القرب من الله تعالى وذلك (في مقعد

صدق عند مليك مقتدر)، وناهيك بهذا الموقع الرفيع الـذي لا ينالـه إلاّ ذو حـظ عظـيم مـن المعرفـة، والقـرب، واللقـاء، والعروج إلى الله. ويتم ذلك كله في وعاء الزمـان وعلـى سلّم الزمـان، ولـولا الزمـان لبقـي الإنسـان فـي علاقتـه مـع الله فـي الموقع الأول الذي خلقه الله تعالى فيه.

صحيح ان الإنسان قد يسقط على سلّم الزمان إلى مـا دون نقطة الصفر، فتكون حركته على عمود الزمان حركة عكسية، ولكن ذلك يتم بإرادته واختياره، وهو فقـط يتحمـل مسؤولية هذا السقوط.

ونحن نقول أن (الزمان) هو عامـل الصـعود والتكامـل فـي تاريخ الإنسان وحياته، اذا كان هو يريد ذلك.

ولا نقول الزمان وعاء لتكامل الإنسـان فحسـب. . فـإن دور الزمان في تكامل الإنسان شيء أكثر من الوعـاء، وأبلـغ تعبيـر في ذلك أن نقول: إنـه (عامـل لتكامـل الإنسـان وعروجـه ولـه دور في تكامل الإنسان).

وإذا عرف الإنسان هذه القيمة الكبيرة للزمـان فـي تكاملـه وعروجـه، فـلا يفـرّط فيـه ولا يبـذّر فـي السـنين والأيـام

والساعات.

إنه رأس ماله الذي آتاه الله في هـذه الـدنيا، والتفـريط فيـه تفريط في رأس المال.

إن التعبير النبوي عن قيمة العمر فـي الحـديث المعـروف عـن رسـول الله (ص) لأبـي ذر تعبيـر بليـغ (يـا أبـا ذر، اغتـنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبـل سـقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتـك) وهو بمعنى أن العمر والصحة والغنى والفراغ والشـباب غنـائم يجب ان يغتنمها الإنسان.

وفي الحديث: (يا ابـن آدم إنمـا أنـت أيامـك) وهـو تعبيـر بليغ لا أعرف أبلغ منه فـي قيمـة الوقـت، وكلمـة (إنّمـا) مـن أقوى أدوات الحصر في اللغة العربيـة... وعليـه يكـون معنـى الحديث الشـريف: (إنّ كـل رأس مـال الإنسـان) فـي حركتـه الصاعدة إلى الله هو أيامه التي رزقه الله في هذه الـدنيا. ففـي هذه الأيام يرقى الإنسـان إلـى الله، وينـال مـا لا عـين رأت ولا أذن سمعت من النعيم المقيم عند الله، وأعظـم مـن ذلـك كلـه وأشـرف وأرفـع مـن كـل ذلـك لقـاء الله وجـواره ورضـوانه

(رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ). المائدة/ ١١٩ **(وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ أَكْبَرُ)** التوبة/ ٧٢.

وهذه هي البصيرة الأولى في هذه السورة المباركة في قيمة الوقت والعمر، والتحذير من إهداره، وتعطيله وإنفاقه فيما لا يعود إلى صاحبه بعائدة جليلة في حركته التكاملية إلى الله.

البصيرة الثانية جواب القسم

(إن الإنسان لفي خسر)

نزيف العمر:

هـذه الخسـارة الحتميـة التـي تقررهـا سـورة العصـر (إنّ الإنسان لفي خسر)، هـي خسـارة العمـر.. وكلمـا يـنقص مـن عمر الإنسان ساعة يخسر صاحبها شطراً مـن رأس مالـه الـذي آتاه الله، والتعريف باللام فـي (الإنسـان) للاسـتغراق، أي كـل الناس.

وقد عرفنا فـي البصـيرة الاولـى فـي هـذه السـورة أن عمـر الإنسـان هـو رأس مالـه الـذي قـدّره الله تعـالى لـه فـي الحيـاة الدنيا، فاذا مضت من عمره ساعة، دون أن يستغلها فقـد خسـر شطراً من رأس ماله.

وهذه الخسارة مستمرة متصلة في حياتـه.. فـي كـل سـاعة وكل دقيقة، بل في كل ثانية، بصورة تدريجية انسيابية.

فإنّ بالإمكان أن يحسب الإنسـان كـم يعـيش مـن الثـواني في هذه الدنيا اذا رزقه الله ثمانين سنة مـن العمـر، فهـي كميـة

محدودة من الدقائق والثواني، على كل حال.. يمكن حسابها بعملية حسابية بسيطة. وعندئذ مهما انصرم من عمر الإنسان دقيقة أو ثانية يخسر شطراً من رأس ماله الذي لا يعوّض.

ومن أغلاط الواهمة عند الإنسان أنه يتصور أنّ الأيام والليالي والأشهر والفصول والسنين تتكرر في حياته.. وهو ليس بتكرار. إنّ كل شطر ينقص من عمر الإنسان لن يعود إليه، ولن يتكرر في حياته، واليوم ليس تكراراً لغد، وهذه السنة ليست تكراراً للعام الذي مضى، وإنما هي أجزاء من عمر الإنسان تتفتت وتتقطع وتستهلك مع الأسف، من غير أن يستغلها الإنسان، وتذهب من غير رجعة..

وتتساقط من عمره هذه الاجزاء جزءاً بعد جزء، وتستهلك بصورة تدريجية مستمرة، وهذا هو نزيف العمر القاتل، وهو شرّ أنواع النزيف في حياة الإنسان. والإنسان في غفلة من ذلك، فإذا نفذ آخر جزء من عمره يفيق عند ذلك من هذه الغفلة القاتلة.

فيتمنى أن يعود إلى الحياة الدنيا مرة أخرى، عارفاً قيمة ما فرط فيه من عمره، ليستغلّ هذه المرة رأس المال الذي منحه

الله من العمر في طاعته، من غير غفلـة، يومـاً بعـد يـوم وسـاعة بعد ساعة، فيكون الجواب كلاّ.

لحظة الندامة

ولحظة الندامة هي اللحظة الأخيرة من عمر الإنسان، تحـلّ بالإنسان رغماً عليه، وهو ما كان عنه يحيد مـن قبـل، ويحـاول أن يتغافل عنه ويتناساه، فتحل به، وهي لحظة رهيبة مـن عمـر الإنسان تشغل الإنسان عن كل شيء **(وَجَـاءتْ سَـكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ)**، ق/ ١٩.

فتحل الندامة بالمجرمين، حيث لا تنفع الندامـة، وتتسـاقط فـي رهبـة هـذه اللحظـة كـل الحجـب التـي كانـت تحجـب الإنسان من قبل، فلا يحجبه الأمل، ولا الهوى ولا الغفلة، عمـا جنـى فـي حياتـه. . منـذ أن وعـى نفسـه إلـى هـذه اللحظـة. . تتساقط عنه حجب الغفلة وطول الأمل، في لحظات سـكرات الموت، مرة واحدة، وملك الموت (عليه السـلام) ينتزعـه مـن هذه الدنيا انتزاعـاً قسـرياً، فيتمنّـى لـو أن الله يعيـده إلـى الـدنيا كرّة أخرى ليعمل صالحاً، فيأتيه الجواب الصادع بالنفي.

(حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ). المؤمنون/ ٩٩ -١٠٠.

إن الإنسان لو وعى هذه البصيرة القرآنية: (إن الإنسان لفي خسر)، وعرف أنّ كل يوم وكل ساعة يمرّ من عمره، إنما يقتطع جزءاً من عمره، لن يعود إليه أبداً. . لو عرف الإنسان هذه البصيرة القرآنية حق المعرفة، تغيّر وجه حياته كلها، وتغيّر منهجه في الحياة.

الحسرة والندامة في كلمات علي بن الحسين (ع):

وما أجمل كلمات الامام زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام في دعاء الأسحار، برواية أبي حمزة الثمالي، في هذا المضمار، فاسمعوا إليه:

(وأعنّي (إلهي) على البكاء على نفسي. فقد أفنيت بالتسويف والآمال عمري، وقد نزلت منزلة الآيسين من خيري. فمن يكون أسوأ حالاً مني، إن أنا نقلت على مثل حالي إلى قبر لم أمهّده لرقدتي، ولم أفرشه بالعمل الصالح

لضجعتي؟ وما لي لا أبكي، ولا أدري إلى ما يكون مصيري؟ وأرى نفسي تخادعني، وأيامي تخاتلني. وقد خفقت عند رأسي أجنحة الموت.

فما لي لا أبكي؟ أبكي لخروج نفسي. أبكي لظلمة قبري. أبكي لضيق لحدي. أبكي لسؤال منكر ونكير إياي. أبكي لخروجي من قبري عرياناً، ذليلاً، حاملاً ثقلي على ظهري).

وهذه المخادعة من النفس التي يشير اليها الامام عليه السلام: (وأرى نفسي تخادعني) هي هذا الوهم الذي يصيب الإنسان، فيتوهم أنّ أيامه ولياليه وأسابيع عمره وشهوره هي تكرار متصل مستمر، يذهب ويعود، وليس كذلك للأسف، إنها قطع من عمر الإنسان ورأس ماله الذي لابد منه تقتطع من عمره، رغماً عليه من غير ان تعود إليه مرة أخرى.

وهذا الوهم من آثار الغفلة.

ثم يقول الامام عليه السلام: (وأيامي تخاتلني) أي تتسرب من يدي، يوماً بعد يوم، في ختلة وغفلة، وخفية، من غير أنْ تكاشفني وتصارحني بأنها تذهب ولن تعود .

أقول: لو وعى الإنسان هذه البصيرة من القرآن: (إن

الإنسان لفي خسر) حق الوعي، كما يعرفها حق المعرفة في آخر لحظة من حياته، لتغيّر وجه حياته، وتغيّر منهجه في الحياة، ولضحك قليلاً، وبكى كثيراً (**فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيراً**) التوبة/ ٨٢.

رأس المال الذائب

إنّ عمر الإنسان هو كل رأس ماله.. ولكنه ليس من نوع رأس المال (الصعب) الذي يثبت على حالة واحدة، وإنما هو رأس مال ذائب، ينفذ بالتدريج، وفي غفلة من قبل صاحبه فلا ينتبه صاحبه الا وقد نفذ رأس ماله كله، من غير أن يتمكن أن ينتفع به، ويستبدله بالعمل الصالح.

إن حالة الخسر الدائم والتناقص المستمر في حياة الإنسان يشبه كثيراً من يشتري برأس ماله ثلجاً ليتاجر به، ويضعه تحت الشمس على قارعة الطريق ليضعه للبيع، ثم يلتهي عن تجارته ويغفل عنها، ويأخذ الثلج تحت الشمس بالذوبان الدائم المتصل، وينقص باستمرار، وصاحبه قد انشغل عنه.. ولا يفيق من غفلته إلاّ بعد أن يذوب الثلج، فيخسر كل رأس

ماله في هذه الغفلة.

إنّ رأس مال الإنسان عندما يكون من النوع الذي يذوب وينقص من تلقاء نفسه، وليس من النوع الصعب الصلب الذي يبقى ويدوم يجب ان يتفرغ الإنسان لاستثماره واستغلاله قبل أن ينفذ.

إنّ عمر الإنسان هو رأس ماله، الذي لا يملك غيره، فإذا خسره خسر كل شيء.. فيكون الإنسان عندئذ قد خسر نفسه. ومن خسر نفسه فقد خسر كل شيء، وهو الخسران المبين.

يقول تعالى: **(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)** الزمر/١٥.

وذلك أن أخسر الخسران هو أن يخسر الإنسان نفسه، فإذا خسر نفسه خسر كل شيء، فهو الخسران المبين إذن في حياة الإنسان حقاً.

فإذا عرف الإنسان هذه الحقائق من عمره التي تلخّصها سورة العصر بقوله تعالى: (إن الإنسان لفي خسر) بادر إلى الاستفادة من عمره واستثمار ساعاته وأيامه في العمل

الصالح، ابتغاءً لوجه الله.

يوم الحسرة

من أسماء يوم القيامة في القرآن (يوم الحسرة).

يقول تعالى: **(وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)** مريم/ ٣٩ .

وهذه الحسرة في الآخرة لها علاقة بغفلات الدنيا **(وهم في غفلة لا يؤمنون)**. مريم/ ٣٩ .

وهذه الغفلة هي سبب الخسارة العظيمة التي تنذرنا به سورة العصر (إن الإنسان لفي خسر). ولو أن الإنسان كان منتبهاً حذراً في الدنيا لم يغفل عن هذا التناقص والخُسر الذي يصيبه في الدنيا، وتجنّبه وتحذّر منه، واستخدم عمره الذي يتناقص باستمرار في الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر.

فهذه ثلاث مفاهيم مترابطة: الغفلة، والخسر في الدنيا، والحسرة في الآخرة.

والغفلة سبب للخسر وإهدار العمر في الدنيا، وهو سبب

الحسرة يوم القيامة.

والغفلة تحجب عن الإنسان هذه الحالة المتصلة من الخسر والتناقص، وتوهم الإنسان بان الايام والليالي والشهور والسنين تتكرر.. فإذا حلّت اللحظة الأخيرة من عمر الإنسان، تساقطت عن الإنسان حجب الغفلة، وتكشفت له الحقيقة بكاملها، وتمثلت له الخسارة الكبيرة التي لحقته بسبب الغفلة، وهو خسارة عمره الذي لا يعود إليه البتّة.

عندئذ تنتابه الحسرة التي تتصل حلقاتها إلى يوم الحسرة الكبرى.

وإلى هذه الثلاثة (الغفلة ' الخسران ' الحسرة) تشير الآية **٣٩** من سورة مريم و(قضي الأمر) يعني انتهى كل شيء ونفذت الفرص كلها، وجاءت الحسرة الكبرى.. وكل ذلك بسبب الغفلة.

وكل الناس يومئذ يشعرون بالحسرة، على قدر الخسارة التي تحمّلوها في الدنيا، وخسائر الناس في الدنيا متفاوتة وحسراتهم في الآخرة كذلك متفاوتة، فليس من خسر سنين من عمره في غير الإيمان والعمل الصالح كمن خسر عمره

كله، وليس من خسر أياماً من عمره كمن خسر سنين من عمره.. ولكن الناس كلهم تنتابهم الحسرة في ذلك اليوم الرهيب إلاّ القليل من عباد الله الصالحين الذين آتاهم الله بصيرة وحذراً وذكراً أنقذهم من غفلات الدنيا، فلم يخسروا شيئاً من أعمارهم في غير الايمان والعمل الصالح وأولئك قليل.

البصيرة الثالثة

(إلاّ الذين آمنوا، وعملوا الصالحات)

وهذه هي البصيرة الثالثة في هذه السورة العجيبة العظيمة، وهي الاستثناء الأول من حتمية جواب القسم في خسران الإنسان (إن الإنسان لفي خسر).

الحالة العامّة للناس:

إن الحالة الغالبة في تاريخ الإنسان على وجه الارض هي: (إنّ الإنسان لفي خسر).

وبناءً على ذلك فإنّ عامة الناس في التاريخ، وعلى وجه الارض، يخسرون أعمارهم كلها أو شطراً منها من دون مردود مكافئ من الإيمان والعمل الصالح.

الاستثناء:

ولهذه الحالة العامة الغالبة من الخسران استثناء لا يدخل في دائرة الخسران التي يدخل فيها عامة الناس، وهو (الذين

آمنوا، وعملوا الصالحات، وتواصوا بالحق، وتواصوا بالصبر).

أركان الاستثناء:

ولهذا الاستثناء ركنان لابد مهما معاً ليخرج الإنسان من دائرة الخسران إلى دائرة الفلاح.

الركن الأول (الإيمان والعمل الصالح).

والركن الثاني (معرفة الحق والتواصي به، والصبر على التمسك بالحق، والتواصي به).

وسوف نتحدث هنا عن الركن الأول منها (الإيمان والعمل الصالح) في هذه البصيرة، وعن الركن الثاني (التواصي بالحق والتواصي بالصبر عليه) في البصيرة الرابعة.

كيف ينقلب النقصان إلى ربح

حالة التناقص في الإنسان حالة حتمية، ولا سبيل لأحد إلى إيقاف هذا التناقص. العمر في تناقص، والشباب في تناقص، والصحة في تناقص والادراك في تناقص (ومن نعمره ننكسه).

ولكن من الممكن أن يتحول هذا التناقص إلى ربح، وذلك عندما يكسب الإنسان بالعمر النافذ المستهلك: الإيمان، والعمل الصالح، وابتغاء الحق، والتواصي به، والتواصي بالصبر على الحق.. عندئذ يتحول التناقص في العمر والشباب إلى تكامل في الإنسان.

وفي غير هذه الصورة فإن التناقص في العمر والشباب والسلامة يتحول إلى (خُسْر) وهي للأسف القاعدة العامة في حالات الناس (إن الإنسان لفي خسر).

وأما الذين يعرفون كيف يحوّلون التناقص إلى التكامل بالإيمان والعمل الصالح وابتغاء الحق فأولئك قلّة من الناس، في حدود الاستثناء من تلك القاعدة (الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر).

الايمان والعمل الصالح

إنّ الأصل هو الإيمان بالله، والعمل الصالح ثمرة الايمان.. والإيمان في حياة الإنسان حالة مثمرة، وليس حالة عقيمة.. والعمل الصالح ثمرته، وضعف العمل وشحته أمارة ضحالة

الإيمان، وبالعكس: تدفّق العمل الصالح من الإنسان علامة عمق الإيمان وتجذره في النفس.

والإيمان هو الكلمة الطيبة في حياة الإنسان، التي ترقى إلى الله، ولكن (العمل الصالح) هو الذي يرفع (الإيمان) إلى الله، ومن دون العمل الصالح يبقى (الإيمان) على وجه الارض ولا يرقى إلى الله.

يقول تعالى: **(إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)**. فاطر/ ١٠ .

إن الكلم الطيب هي التي تصعد إلى الله، ومنها الايمان. ولكن العمل الصالح يرفعها.

فإذا تجرد الايمان عن العمل الصالح فلا يرقى الإيمان إلى الله.

ويرقى الإيمان إلى الله بقدر العمل الصالح.

فمن يخلو إيمانه عن العمل لا يرقى إيمانه إلى الله.

ومن قلّ عمله يرقى عمله إلى الله قليلاً.

ومن كثر عمله يرقى عمله إلى الله كثيراً.

وعلى هذه القاعدة: الإيمان الكلمة الطيبة التي ترقى (تصعد) إلى الله، ولكن العمل الصالح يرفع الإيمان إلى الله.. . وعلى مقدار العمل الصالح يصعد الإيمان إلى الله.

وهذه العلاقة التكاملية بين الإيمان والعمل الصالح من رقائق الثقافة القرآنية التي تشير اليها الآية العاشرة من سورة فاطر.

البصيرة الرابعة

(وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر)

شرط الحق:

ولكن لا يُخْرِجُ (الإيمان) و(العمل الصالح) الإنسان من دائرة الخسران، ولا يدخلانه في دائرة الاستثناء، إلاّ بشرط الحق، وما لم يتحقق هذا الشرط، فلا يخرج (الإيمان) و(العمل الصالح) صاحبهما من دائرة الخسران إلى دائرة الاستثناء والربح والفلاح.

وهذا الحق هو (الصراط المستقيم) الذي طالما ندعو الله أن يهدينا إليه وأن يجعل إيماننا وأعمالنا على نهجه وهداه (اهدنا الصراط المستقيم).

وقد صحّ عن رسول الله (ص) أن أمته ستفترق إلى اثنين وسبعين فرقة، كلهم في النار إلاّ فرقة واحدة. ولا شك أن الفرق الهالكة تؤمن بالله، ولا تخلو من العمل الصالح.. ولكن الإيمان بالله والعمل الصالح وحدهما لا يخرجانهم من دائرة الخسران: (إن الإنسان لفي خسر) ما لم يتحقق في إيمانهم

وعملهم شرط (الحق)، وهو سلوك (المنهج الحق)، والصراط المستقيم، في الإيمان والعمل الصالح.

إن للإيمان والعمل الصالح مسالك ومناهج كثيرة، ولكن ليس كل هذه المسالك تؤدي بصاحبها إلى الخروج عن دائرة الخسران إلى دائرة (النجاة). فإن النجاة لا يتم الا من خلال مسلك الحق، من بين هذه المسالك والمناهج جميعاً.

لقد رفع معاوية - بتدبير من وزيره عمرو بن العاص - في معركة صفين، عندما بدأت الدوائر تنقلب عليهم في صفين.. رفع معاوية المصاحف وأمر بنداء الناس من جيش علي ﷺ بإننا وإياكم نؤمن بإله واحد، ونصلي صلاة واحدة ونتوجه فيها إلى قبلة واحدة، ونعمل بكتاب واحد، فلماذا القتال؟ وهو مغالطة واضحة.

وجواب هذه المغالطة واضح، وهو ان الإيمان بالله والعمل الصالح وحدهما لا يخرجان صاحبهما عن الضلال، إلاّ اذا استجاب صاحبهما لشرط (الحق) وقبل به.. وكان علي (عليه

السلام) في حرب صفين على الحق[١]، ومعاوية على الباطل، بإجماع المسلمين، وما لم يخرج أصحاب معاوية من طاعة معاوية إلى طاعة علي عليه السلام لا يخرجهم الإيمان والعمل الصالح، حتى لو كان صلاةً إلى القبلة، من (دائرة الخسران) إلى دائرة الاستثناء والنجاة والفلاح.

لقد جعل الله تعالى (الحق) شرطاً للنجاة بالإيمان والعمل الصالح، وجعل للحق معالم في حياة المسلمين، لئلا يضلّوا، وكان علي (عليه السلام) من معالم الحق في أحاديث رسول الله (ص).

التواصي بمعرفة الحق، والصبر عليه:

وأمر (الحق) صعب عسير شاق.

ومشقة الحق في أمرين أحدهما أشق من الآخر.

---

(١) وردت النصوص الكثيرة بأن علياً (ع) مع الحق والحق مع علي) في أمهات المصادر الشيعية والسنية عن رسول الله (ص) بطرق وأسانيد مستفيضة، جملة منها صحيحة، لا يمكن التشكيك بها. راجع: كتاب (علي ميزان الحق) للعالم المحقق محمد كوزل الآمدي.

المشقة الاولى في معرفة الحق، وتشخيص الحق من بين المسالك التي يسلكها الناس.

والمشقة الثانية في الثبات على الحق والصبر عليه.

وكل منهما شاقّ، غير ان الثاني أشق من الأول. فلا يهتدي أحد إلى (الحق) إلاّ بعد جهد شاق وعسير في التحقيق والتحري والتثبت.

فإذا عرف الإنسان (الحق) فقد أحرز الشوط الاول من الطريق، وأمامه الشوط الثاني، وهو الثبات على الحق والصبر عليه، وهو أشق من الشوط الاول.

فقد اهتدى كثيرون للحق، ولم يثبتوا عليه، والثبات على الحق أصعب من معرفة الحق والاهتداء إليه.

وهذه المشقة المزدوجة في (الحق)، في معرفة الحق، وفي الثبات والصبر عليه، تتطلب من الناس أن يتواصوا بالحق، ويتواصوا بالصبر على الحق والثبات عليه.

(وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر).

ومن التواصي: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والتعريف بالحق، والتوجيه، والإرشاد، والتثقيف، والتعليم،

والتبليغ، والدعوة، ولولا ذلك كله لما عرف الناس الحق، ولما ثبتوا عليه **(فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ)** التوبة/ ١٢٢.

ولكيلا تزلّ أقدام الناس على طريق الحق والهدى، إلى مسالك الضلال، كما زلّت أقدام الكثيرين من الناس، لابد أن يتواصى الناس فيما بينهم، بعضهم مع بعض، لئلاّ ينحرفوا عن صراط الحق، ولا يخرجهم الهوى والطاغوت إلى مسالك الباطل.

محور الحق

ولابد ان نتوقف قليلاً عند هذه البصيرة من بصائر سورة العصر. . أن قوله تعالى: (وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) يعني التواصي بتعريف الحق والاعلان عنه لئلا يضيع الحق والتواصي بالصبر على الحق، لئلا يدع الناس الحق لمشقته وكلفته العالية.

إذن محور هذه البصيرة هو (الحق): التعريف به والصبر

عليه.

وهو أمر آخر غير الايمان والعمل الصالح.. وإن شئت قلت هو الضلع الثالث للايمان والعمل الصالح.

ولا يكفي الايمان والعمل الصالح لخروج الإنسان من حالة الخسران حتى يكون الايمان بالالوهية والرسالة والمعاد والعمل الصالح على مسلك الحق، ويتعرف الإنسان على (الحق) ويأخذ به ويصبر عليه.

والآية الأخيرة من سورة العصر واضحة في ذلك، فإنها تذكر للخروج من حالة الخسر ثلاث نقاط:

(إلا الذين آمنوا: الإيمان) و(عملوا الصالحات: العمل الصالح) و(تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر: التعريف بالحق والإعلان عنه والصبر عليه).

ولا نحتاج إلى مؤونة زائدة غير ظاهر الآية الكريمة لاستخراج هذا الثلاثي من هذه الآية.

الصراط المستقيم

وهو الصراط المستقيم - والله أعلم - الذي نسأل الله

تعالى ان يهدينا إليه كلما نقرأ سورة الفاتحة (إهدنا الصراط المستقيم). . ولا شك أن الصراط المستقيم في سورة الحمد شيء آخر غير الإيمان بالله والرسالة والمعاد والعمل الصالح. . وفي الناس كثيرون يؤمنون بالله ويعملون الصالحات، ولكنهم على غير الهدى ونهج الحق والصراط المستقيم، وليس ذلك بعزيز. بل العزيز من المؤمنين العاملين بالصالحات من يجري إيمانه وعمله على نهج الحق والصواب والهدى والصراط المستقيم.

وهو معنى الصراط المستقيم الذي لا نزال ندعو الله تعالى أن يهدينا إليه في كل يوم وليلة عشرة مرات في الدعاء الواجب في فريضة الصلاة.

التعددية الدينية

وليس من شك ان التعددية المذهبية قائمة في الإسلام وليس أحد يستطيع أن ينكر ذلك في واقعنا الديني وفي وتاريخنا. . فقد تفرق الإسلام إلى مذاهب واجتهادات شتى، يجمعها الإيمان بالله ورسوله ويوم القيامة، ولا يخلو اصحاب

هذه المذاهب من الأعمال الصالحة بالتأكيد من صلاة وصوم وزكاة وحج وأنفاق..

وهذا أمر واقع لا سبيل إلى إنكاره والتشكيك فيه.. ولا يمكن أن تكون هذه المذاهب جميعا على الحق فيما يختلفون فيه في الأصول والفروع.

فلا يتعدد الحق، ولا يمكن أن تكون هذه المذاهب جميعاً على الحق فيما يختلفون فيه.

ويوجد اليوم من يدعو إلى إقرار التعددية في الدين والدعوة إلى الاعتراف بها جميعاً، بأنها من دين الله، وأنها جميعاً حق، وأن الحق مسألة نسبية، ولا نعرف حقاً مطلقاً في الأديان والمذاهب، وأن لكل دين ومذهب نصيب وحظ من الحق..

ولكن الإسلام لا يقرّ هذه الدعوة كما لا يقرّه العقل. ولا نحتاج إلى أن نتوقف طويلاً عند هذه النقطة، فهي أوضح من أن يحتاج إلى وقفة للدراسة والتفكير. سواءً كان ذلك بين الأديان الإلهية او بين المذاهب الإسلامية.

نعم، ليس ذلك بمعنى نفي الإسلام عنها قطعاً. وكل

المـذاهب التـي تأخـذ بالكتـاب والسـنة وتأخـذ بضـرورات الإسـلام مـن الإسـلام حقـاً. . إلاً أن انـدراج هـذه المـذاهب جميعاً تحت هذا العنـوان العـريض، لـيس بمعنـى أنهـا جميعـاً على الحق فيما يختلفون فيه.

وهذه النقاط جميعـاً مـن الواضـحات التـي لا تحتـاج إلـى التوضيح والشرح.

حديث افتراق الأمة

وقد صحّ عن رسول الله (ص) (وتفترق أمتي علـى ثـلاث وسبعين فرقة)[1].

وعن عوف بن مالك، قال: قال رسـول الله (ص): (لتفتـرقن أمتـي علـى ثـلاث وسـبعين فرقـة، واحـدة فـي الجنـة واثنتـان وسـبعون فـي النـار، قيـل: يـا رسـول الله ومـن هـم؟ قـال:

---

(١) أخرجه الترمذي وقال عنه حديث حسن صحيح (سنن الترمذي كتاب الإيمان ١٨ باب ما جاء في افتراق الأمة رقم/ ٦٤٠، وأخرجه ابن ماجة في السنن ٢ / ١٣٢١، ١٦ كتاب الفتن، باب افتراق الامم رقم / ٣٩٩١، واخرجه ابو داود، واللفظ له ٥ : ٤، ٣٤ كتاب السنة، باب شرح السنة رقم / ٤٥٩٦.

الجماعة)[1].

ولهذا الحديث طرق كثيرة، وألفاظه متقاربة، وقد رواه الفريقان بطرق كثيرة بالغة حد الاستفاضة.. ولا يمكن على نحو الإجمال التشكيك في صدور هذا الحديث عن رسول الله (ص).

وواضح أن هذه الفرق لا يمكن ان تكون كلها على حق فيما يختلفون فيه، ولا يمكن ان يكون الرأي وخلافه كل منهما على حق.

الخلاصة

والخلاصة التي استخلصها من الشرح المتقدم:

١- أن التعددية المذهبية والدينية أمر حاصل يقيناً مع الإيمان والعمل الصالح، ولم يمنع الإيمان والعمل الصالح من حدوث التعددية في هذا الدين.

---

(١) أخرجه ابن ماجة ٢ / ١٣٢٢، ٣٦ كتاب الفتن، ١٧ باب افتراق الامم، رقم/ ٣٩٩٢، والحاكم في المستدرك ١ / ٦ كتاب الإيمان.

٢- وغير صحيح إسلامياً وعقلاً ان تكون هـذه الحالـة مـن التعددية كلها على الحـق فيمـا يختلفـون فيـه، ويكـون الـرأي وخلافه كل منهما علـى حـق، وهمـا مختلفـان، بـل متقاطعـان أحياناً.

بركات الحق في حياة الأمة

وللحق بركات عظيمـة فـي حيـاة الأمـة، لا يسـعنا المجـال الآن لشرحها وتفصيلها، وإنما نشـير إلـى فقـرة واحـدة وردت في دعاء الافتتاح المروي عن الامام المهدي (عجل الله فرجـه الشريف) لليالي شهر رمضان.. وفـي هـذه الفقـرة إشـارة إلـى طائفة واسعة من بركات الحق في حياة الفـرد والأمـة، وإليـك هذه الفقرة:

(اَللّـهُمَّ ما عَرَّفْتَنا مِن الْحَقِّ فَحَمِّلْناهُ، وَما قَصُرْنا عَنْـهُ فَبَلِّغْناهُ، اَللّـهُمَّ الْمُمْ بِهِ شَعَثَنا، وَاشْعَبْ بِهِ صَدْعَنا، وَارْتُقْ بِهِ فَتْقَنا، وَكَثِّرْبِهِ قِلَّتَنا، وَاَعْزِزْ بِهِ ذِلَّتَنا، وَاَغْـن بِـهِ عائِلَنـا، وَاَقْضِ بِهِ عَنْ مَغْرَمِنا، وَاجْبُرْبِهِ فَقْرَنـا، وَسُـدَّ بِـهِ خَلَّتَنـا، وَيَسِّرْ بِهِ عُسْرَنا، وَبَيِّضْ بِهِ وُجُوهَنـا، وَفُـكَّ بِـهِ اَسْـرَنا،

وَاَنْجِحْ بِهِ طَلِبَتَنا، وَاَنْجِزْ بِهِ مَواعيدَنا، وَاسْتَجِبْ بِهِ دَعْوَتَنا، وَاَعْطِنا بِهِ سُؤْلَنا، وَبَلِّغْنا بِهِ مِنَ الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ آمالَنا، وَاَعْطِنا بِهِ فَوْقَ رَغْبَتِنا، يا خَيْرَ الْمَسْؤولينَ وَاَوْسَعَ الْمُعْطينَ، اِشْفِ بِهِ صُدُورَنا، وَاَذْهِبْ بِهِ غَيْظَ قُلُوبِنا، وَاهْدِنا بِهِ لِمَا اخْتُلِفَ فيهِ مِنَ الْحَقِّ بِاِذْنِكَ، اِنَّكَ تَهْدي مَنْ تَشاءُ اِلى صِراط مُسْتَقيم، وَانْصُرْنا بِهِ عَلى عَدُوِّكَ وَعَدُوِّنا اِلـهَ الْحَقِّ آمينَ).

هذه طائفة من بركات (الحق) في حياة الأمة والفرد ورد ذكرها في هذا الدعاء الشريف ولهذا الموضوع شرح وتفصيل لا يسعه المقام.

معرفة الحق والصبر عليه:

وإنما تدعو سورة العصر إلى التواصي بالحق، لأن الحق محفوف دائماً بعوامل التضليل والتمويه، فلابد في هذه المرحلة من التواصي والتعاون لإظهار (الحق) وإبرازه، والدفاع عنه، وإعلانه، حتى لا يضع الحق.

ولابد كذلك من التواصي بالصبر على الحق والتمسك به والثبات عليه، لئلا ينفرد عوامل الاغراء والارهاب بروّاد

الحق، ويقسرونهم علـى الانحـراف عـن الحق باتجـاه الباطـل بــالطمع والإرهــاب. . فــإنهم إذا واجهــوا عوامــل الإغــراء والإرهاب كتلة واحدة متراصـة ومتواصـية كـانوا أقـوى علـى الصبر على الحق والثبات عليه.

وهذا هو سرّ الدعوة إلى التواصي بالحق والتواصي بالصـبر وأعلم ببصائر كتابه.

معالم الحق

وللحق دليل يهدي الحق، ويقطع سبيل الباطل وهـو حجـة على الناس جميعـاً، ولا يـدع الله تعـالى الحـق مـن غيـر دليـل وحجة.

وقد أسهب علماء مدرسة أهل البيت عليهم السلام في بيـان الادلـة والحجج التي جعلها الله تعالى للناس في ظروف الفتنة الصعبة التي اكتنفت المسلمين بعد حياة رسول الله (ص) أسـوة بسـائر الأمم، كما يقول رسول الله (ص).

فقد روى محمد بن اسماعيل البخـاري فـي الصـحيح عـن رسول الله (ص):

(لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا حُجر ضب تبعتموهم).

قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟

قال (ص): (فمن ذا؟)[١].

لقد أسهب وفصل علماء مدرسة أهل البيت عليهم السلام في الأدلة الدالة على المذهب الحق من الكتاب والسنة.. ولسنا الآن بصدد هذه الأدلة..

ولكننا نقول: إنّ الله تعالى جعل للناس مع هذه الأدلة وإلى جانبها معالم يوضح الصراط المستقيم، ويوضح منهج الحق الذي أمرنا الله تعالى باتباعه.

وهذه المعالم واضحة وبيّنة لا سبيل إلى التشكيك فيها.. وليس بامكاننا الآن أن نستعرض هنا المعالم التي وضعها الله تعالى على طريق رواد الحق.. وقد ذكر طائفة منها العالم المحقق التركي (محمد كوزل الآمدي) حفظه الله في كتابه

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي (ص) لتتبعن.

القيم: (على ميزان الحق).

ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله.. وسوف اشير إلى بعض نصوص هذه المعالم التي جعلها الله تعالى للناس لتشخيص الحق والتعريف به. وسوف نقتصر في هذه الباقة من الروايات على ما ورد منها في كتب أهل السنة فقط، ونترك ما عدا ذلك للأبحاث المفصلة في هذا الباب.

روى مسلم بسنده عن علي عليه السلام قال:

والذي فلق الحبة وبرأ النسمة: إنه لعهد النبي الأمي إليّ: (أنه لا يحبّني إلاّ مؤمن، ولا يبغضني إلاّ منافق).[١]

ورواه النسائي[٢]، والبلاذري[٣]، وأحمد بن حنبل[٤]، وابن

---

(١) صحيح مسلم كتاب الإيمان، باب الدليل على أن حب الأنصار وعلي رضي الله عنهم من الإيمان: ١/٨٤.

(٢) سنن النسائي، علامة المنافق: ٨/١١٧.

(٣) أنساب الأشراف: ٢/٣٥٠.

(٤) مسند أحمد بن حنبل: ١/٨٤.

ماجة.[١]

قال أبو نعيم: هذا حديث صحيح، متفق عليه، رواه الجم الغفير عن الأعمش.[٢]

وقال ابن كثير في هذا الحديث برواية الأعمش: وهذا الذي أوردناه هو الصحيح من ذلك والله أعلم.[٣]

وقد روى أحمد بن حنبل عن أبي سعيد الخدري أنه كان يقول: (إنما كنا نعرف منافقي الأنصار ببغضهم لعلي).[٤]

ورواه ابن عساكر عن أبي سعيد الخدري ولفظه (ما كنا نعرف المنافقين إلاّ ببغضهم علياً والأنصار).[٥]

وروى ابن المغازلي في المناقب بسنده عن عبد الرحمن بن أبي سعيد عن أبيه، قال كنا عند بيت النبي(ص) في نفر

---

(١) سنن ابن ماجه: ٥٦/١ ح١١٣.

(٢) حلية الأولياء: ١٨٥/٤ — ١٨٦.

(٣) البداية والنهاية: ٣٩١/٧.

(٤) فضائل الصحابة: ٥٧٩/٢.

(٥) تاريخ دمشق: ٢٨٥/٤٢.

من المهاجرين، والأنصار، فخرج علينا (يعني النبي(ص)): فقال: ألا أخبركم بخياركم؟ قلنا: بلى، قال: خياركم الموفون المطيبون، إنّ الله عزّ وجلّ يحب الحفي التقي، فقال ومرّ علي بن أبي طالب فقال: (الحق مع ذا، الحق مع ذا).[١]

أخرجه ابن عساكر في التاريخ من طريق أبي يعلي.[٢] وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد، وقال رواه أبو يعلي ورجاله ثقات.[٣]

روى الطبراني بسنده عن أم سلمة، قالت: سمعت رسول الله(ص) يقول: (علي مع القرآن والقرآن معه، لا يتفرقان حتى يردا عليّ الحوض).

وصححه الحاكم – وأقره الذهبي في ذلك.[٤]

وأخرجه العاصمي في سمط النجوم[٥].

---

(١) المناقب لابن المغازلي: ٢٤٤ ح ٢٩١.

(٢) تاريخ دمشق: ٤٤٩/٤٢.

(٣) مجمع الزوائد للهيثمي: ٢٣٤/٧-٢٣٥.

(٤) مستدرك الصحيحين: ١٢٣/٣.

(٥) سمط النجوم: ٦٣/٣.

والمتقي في الكنز.[١]

وقال الرازي في تفسيره (من اتخذ علياً إماماً لدينه فقد استمسك بالعروة الوثقى).[٢]

وروى ابن عساكر في تاريخ دمشق عن أحمد بن حنبل أنه قال:

لم يزل علي بن أبـي طالب مع الحق والحق معه حيث كان.[٣]

وعن أم سلمة رضي الله عنها.

قالت قال رسول الله(ص) علي مع القرآن، والقرآن مع علي، لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض.

صححه الحاكم على شرط الشيخين وصححه الذهبي.[٤]

وعن أنس بن مالك:

---

(١) كنز العمال: ٦٠٣/١١.

(٢) تفسير الرازي: ٢٠٥/١-٢٠٧.

(٣) تاريخ دمشق: ٤١٩/٤٢.

(٤) الحاكم في مستدرك الصحيحين: ١٣٤/٣ ذكر اسلام أمير المؤمنين علي رضي الله عنه.

أن النبي (ص) قال لعلي عليه السلام

أنت تبيّن لأمتي ما اختلفوا فيه من بعدي، صححه الحاكم على شرط الشيخين.[(١)]

وعن عمرة بنت عبد الرحمن قالت لما سار علي عليه السلام إلى البصرة دخل على أم سلمة زوج النبي (ص) يودّعها، فقالت رضي الله عنها: سِرْ في حفظ الله وفي كنفه، والله إنّك لعلى حق، والحق معك، ولولا أنّي أكره أن أعصي الله ورسوله، فإنّه أمرنا (ص) أن نقر في بيوتنا لسرت معك، ولكن والله لأرسلن معك من هو أفضل عندي وأعز عليّ من نفسي ابني عمر. صححه الحاكم على شرط الشيخين، وصححه على شرطهما الذهبي في الهامش.[(٢)]

وعن أبي ذر قال: قال رسول الله (ص).

من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع علياً فقد أطاعني، ومن عصى علياً فقد عصاني.

---

(١) الحاكم في مستدرك الصحيحين: ١٦٠/٣.

(٢) الحاكم في مستدرك الصحيحين: ١٢٩/٣.

صحححه الحاكم في المستدرك، وصححه الذهبي في هامش المستدرك،[١]، وعن عمور بن شاوس الأسلمي، قال: قال رسول الله(ص) من آذى علياً فقد آذاني.

صححه الحاكم في المستدرك وصححه الذهبي في الهامش.[٢]

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله(ص) لعلي عليه السلام: (من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله. من أطاعك فقد أطاعني، ومن عصاك فقد عصاني). صححه الحاكم في المستدرك.[٣]

وعن عوف بن أبي عثمان النهدي، قال رجل لسلمان ما أشد حبك لعلي. فقال رضي الله عنه سمعت رسول الله(ص) يقول: (من أحب علياً فقد أحبني، ومن أبغض علياً فقد أبغضني). صححه الحاكم على شرط الشيخين، وصحح

---

(١) مستدرك الصحيحين: ١٣١/٣.

(٢) مستدرك الصحيحين: ١٣١/٣ – ١٣٢.

(٣) مستدرك الصحيحين: ١٣٩/٣.

الذهبي على شرطهما.[١]

الخلاصة والنتيجة

ومعنى هذه الأحاديث وأحاديث أخرى كثيرة وردت بنفس المضمون وهي إجمالاً بالغة حد الاستفاضة، وصحيحة في جملة من طرقها. . أقول: معنى هذه الأحاديث إننا مهما وجدنا الناس يتشعبون ويختلفون في المسالك والمذاهب نقف حيث يقف على بن أبي طالب عليه السلام فهو معلم الحق في فتن الضلالة.

ولابد لرواد الصراط المستقيم الذين يطلبون الحق في فتن الضلالة ان يقتفوا أثر علي بن أبي طالب عليه السلام.

ثم يتواصوا به ويتواصوا بالصبر عليه، (وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر).

وهذه هي البصيرة الرابعة في هذه السورة المباركة.

محمد مهدي الآصفي

في ٢٤ ج ١/ ١٤٣١هـ

---

(١) مستدرك الصحيحين: ١٤١/٣.

الفهرس